حياة أعظم الرسل

مُحَمَّد في بَيتِ عَمِّهِ أبي طالِب

مُحَمَّدٌ فِى بَيْتِ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ

اِنتَقَلَ مُحمدٌ إِلَى بَيتِ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ بَعدَ موتِ جَدِّهِ عَبدِ المُطَّلِبِ ، وَكَانَ عُمرُهُ ثَمانِىَ سَنَوَاتٍ . وَقَد وَفَى أَبُو طَالِبٍ بِوَعْدِهِ لِأَبِيهِ قَبلَ مَوتِهِ ، وَاعْتَنَى بِابنِ أَخِيهِ كُلَّ العِنَايَةِ . وَكَانَتِ أُسْرَتُهُ (عَائِلَتُهُ) الَّتِى يُنْفِقُ عَلَيها كَبِيرَةً . وَكَانَ فَقِيرًا فَحَسُنَت حَالُهُ ، وَكَثُرَ رِزْقُهُ ، بَعد

أَن أَخَذَ ابنَ أَخِيهِ إِلَى بَيتِهِ . كَانَ أَبو طَالِبٍ يُحِبُّ مُحمدًا أَكْثَرَ مِن حُبِّهِ لِأَولَادِهِ . إِذَا خَرَجَ أَخَذَهُ مَعَهُ ، وَإِذَا نَامَ جَعَلَهُ بِجَانِبِهِ . وَكَانَ رَحِيمًا بِمُحَمَّدٍ ، غَيُورًا عَلَيهِ . وَقَد شَارَكَتْهُ زَوجَتُهُ فَاطِمَةُ فِى تَربِيَةِ رَسُولِ اللّٰهِ ، وَالعِنَايَةِ بِهِ ، وَالْعَطْفِ عَلَيهِ . وَحِينَمَا مَاتَت قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « اليــومَ مَاتَت أُمِّى » . وَكَفَّنَهَا بِقَمِيصِهِ . وَقَد استَمَرَّ عَمُّهُ يُحَافِظُ عَلَيهِ ، وَاللّٰهُ يَحْرُسُهُ ، وَيَحفَظُهُ مِن ذُنُوبِ أَهلِ مَكَّةَ فِى ذٰلِكَ

الوَقتِ ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَن يَجعَلَهُ نَبِيًّا يَهدِى العَالَمَ كُلَّهُ .

وَفِى عَصْرِ مُحَمَّدٍ لَم يَأْكُلِ النَّاسُ عَلَى مَائِدَةٍ كَمَا نَفْعَلُ اليَومَ . بَل كَانَ الأَطفَالُ يَجتَمِعُونَ حَوْلَ أُمِّهِم وَقْتَ الطَّعَامِ . وَكُلُّ طِفلٍ يُحَاوِلُ أَن يَأْخُذَ مِنَ الطَّعَامِ بِقَدْرِ مَا يَستَطِيعُ ، وَلٰكِنَّ مُحمدًا لَم يَكُنْ مِثلَ غيرِهِ ، فَكَانَ يَنتَظِرُ ، وَيَأْخُذُ مَا يُقَدَّمُ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ ، وَهُوَ شَاكِرٌ وَرَاضٍ بِمَا يَجِدُهُ .

كَانَ مُحمدٌ قَوِىَّ الْجِسمِ ، ولٰكِنَّهُ لَمْ يَستَعمِلْ قُوَّتَهُ مُطلَقًا فِى ضَرْبِ صَديقٍ ، أَو إِيذاءِ أَىِّ إِنسَانٍ . وَمَعَ صِغَرِ سِنِّهِ كَانَ يُحَاوِلُ مُسَاعَدَةَ كُلِّ واحِدٍ بِقَدْرِ مَا يَستَطِيعُ . وَقَدِ اعتَادَ أَهلُ مَكَّةَ أَنْ يُشِيرُوا إِلَيهِ بِأَنَّهُ الغُلامُ الكَامِلُ فِى أَخلاقِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَقوالِهِ . وَتَمَنَّى كُلُّ أَبٍ مِنَ الْآبَاءِ أَن يَرَى أَبنَاءَهُ مِثلَ مُحمدٍ فِى كَلامِهِ وَتَفكِيرِهِ وَخُلُقِهِ وَفِعلِهِ .

رَعيُهُ لِلغَنَمِ وَهُوَ غُلاَمٌ :

كُلُّ نَبِيٍّ أَرسَلَهُ اللهُ كَانَ رَاعِيَ غَنَمٍ ، وَمُحمدٌ كَانَ رَاعِيَ غنَمٍ . وَالحِكمَةُ فِي رَعيِهَا تَعويدُ الرَّاعِـي حُسنَ المعُامَلَـةِ ، وَالشَّفَقَةَ وَالرَّأفَةَ بِالرَّعِيَّةِ ، وَتَربِيَةَ مُيُولِهِ وَطِباعِهِ ، حَتَّى يَكُونَ عَادِلاً فِي رِعَايَةِ غَيرِهِ .

سَفَرُهُ إلَى الشَّامِ مَعَ عَمِّهِ :

وَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللهِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً مِن عُمرِهِ اِستَعَدَّ أَبُو طَالِبٍ لِلسَّفَرِ إِلَى

دِمَشْقَ بِالشَّامِ فِى تِجَارَةٍ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ تَاجِرًا . وَلَم يُفَكِّرْ فِى أَخذِ مُحمدٍ مَعَهُ ؛ لِأَنَّهُ خَافَ مِن أَن يَتعَبَ مِنْ هٰذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ المُتْعِبَةِ . وَلٰكِنَّ مُحمدًا أَظهَرَ لِعَمِّهِ رَغبَتَهُ فِى السَّفَرِ مَعَهُ إِلَى الشَّامِ ، فَرَقَّ لَهُ أَبُو طَالِبٍ ، وَأَخَذَهُ مَعَهُ . وَقَالَ : وَاللهِ لَأَخرُجَنَّ بِهِ مَعِى ، وَلاَ يُفَارِقُنِى وَلاَ أُفَارِقُهُ أَبَدًا . فَخَرَجَ بِمُحَمَّدٍ مَعَهُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَرَيَةٍ فِى جَنُوبِ الشَّامِ تُسَمَّى بُصرَى . فَوَقَفَ رِجَالُ القَافِلَةِ (الرِّجَالُ

الْمُسَافِرُونَ مَعًا) لِيَسْتَرِيحُوا وَتَستَرِيحَ الْجِمَالُ . وَكَانَ بِالقُربِ مِنهُم دَيرٌ لِلرُّهبَانِ مِنَ المَسِيحِيِّينَ ، وَرَئيسُهُ رَاهِبٌ اِسمُهُ بَحِيرَى . وَهُوَ عَالِمٌ من عُلَمَاءِ المَسِيحِيِّينَ . وَقبلَ أَن تَقِفَ القَافِلَةُ لَحَظَ الرَّاهِبُ أَنَّ سَحَابَةً تُلازِمُ وَاحِدًا مِنَ القَافِلَةِ عَلَى الدَّوَامِ ، كَمِظَلَّةٍ فَوقَهُ لِتَحمِيَهُ مِنْ حَرَارَةِ الشَّمسِ الشَّدِيدَةِ صَيفًا . وَقَد عَرَفَ بَحِيرَى مِنَ الْكُتُبِ الدِّينِيَّةِ الَّتِى قَرَأَهَا أَنَّ هٰذِهِ السَّحَابَةَ

لاَ تَكُونُ مِظَلَّةً إلاَّ لِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنبِيَاءِ . فَلَمَّا رَأَى الرَّاهِبُ ذٰلِكَ أَمَرَ بِإعْدَادِ وَلِيمَةٍ كَبِيرَةٍ لِتُجَّارِ مَكَّةَ ، وَأَرسَلَ إِلَيهِم يَدعُوهُم لِيَتَنَاوَلُوا الغَدَاءَ مَعَهُ فِى الدَّيرِ ، وَطَلَبَ مِنهُمْ أَن يَحضُرُوا جَمِيعًا .

وَكَثيرًا مَا كَانَ تُجَّارُ مَكَّةَ يَمُرُّونَ بِهِ قَبلَ هٰذَا الْيَومِ فَلاَ يُكَلِّمُهُم ، وَلاَ يَتَّصِلُ بِهِم ، حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ العَامُ (السَّنَةُ) ، فَدَعَاهُم إِلَى الطَّعَام .

فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنهُمْ : مَاذَا حَدَثَ اليَومَ

يَا بَحِيرَى ؟ إِنَّكَ لَم تَصنَعْ هٰذَا مَعَنَا مِن قَبلُ . وَقَد كُنَّا نَمُرُّ بِكَ كَثِيرًا فَلاَ تَدعُونَا . أَجَابَ بَحِيرَى : صَدَقتَ ، وَلٰكِنَّكُم ضُيُوفٌ . وَقَد أَحبَبْتُ أَن أُكرِمَكُم وَأَصنَعَ لَكُم طَعَامًا ، فَتَأكُلُوا مِنهُ جَمِيعُكُم . فَاجْتَمَعُوا عِندَهُ ، فَسَأَلَهُم الرَّاهِبُ : هَل حَضَرَ الجَمِيعُ ؟ فَأَجَابَ التُّجارُ : إِنَّهُم حَضَرُوا وَلَم يَتَخَلَّفْ إِلاَّ غُلاَمٌ سِنُّهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ سَنَةً .

فَقَالَ الرَّاهِبُ : أُدعُوهُ . وَيَجِبُ أَنْ

يَحضُرَ مَعَكُم . فَقَامَ عَمُّهُ الحَارِثُ بنُ عَبدِ المُطَّلِبِ ، فَاحتَضَنَهُ ، وَأَحضَرَهُ ، وَأجلَسَهُ مَعَهُم . فَلَمَّا وَصَلَ مُحمدٌ نَظَرَ إِلَيهِ بَحِيرَى نَظْرَةً دَقِيقَةً ، وَأَخَذَ يَسأَلُهُ عَن أَشْيَاءَ : عَن حَالِهِ ، وَنَوْمِهِ ، وَهَيْئَتِهِ ، وَأُمُورِهِ ، وَيُخبِرُهُ ﷺ ، فَيُوَافِقُ ذٰلِكَ مَا عِندَ بَحِيرَى فِي أَوصَافِهِ الَّتِي فِي كُتُبِهِ الدِّينِيَّةِ فَلَمَّا انتَهَى بَحِيرَى مِنَ الأَسْئِلَةِ وَسَمِعَ الأَجوِبَةَ أَخَذَ أَبَا طَالِبٍ وَابنَ أَخِيهِ عَلَى انْفِرَادٍ وَقَالَ : هٰذَا هُوَ خَاتَمُ الرُّسُلِ .

فَسَأَلَهُ أَبُو طَالِبٍ : كَيفَ عَرفتَ هٰذَا ؟

فَأَجَابَهُ الرَّاهِبُ :

إِنَّ الْعَلامَاتِ الَّتِى يَتَّصِفُ بِهَا خَاتَمُ الأَنبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مَذكُورةٌ فِى كُتُبِنَا . وَإِنَّ السَّحَابَةَ لاَ تُظَلِّلُ غيرَ الأَنبِيَاءِ . وَحِينَمَا قَرُبْتُم مِنَ الدَّيرِ رَأَيتُ سَحَابَةً تُظَلِّلُ شَخْصًا مِنَ الْقافِلَةِ . فَاعتَقَدتُ أَنَّ الرَّسُولَ الَّذِى ذُكِرَت أَوصَافُهُ فِى كُتُبِنَا الْمُقَدَّسَةِ — مَعَكُم . وَلِهٰذَا السَّبَبِ قَد دَعَوتُكُم لِكَى أَراهُ وَأُقابِلَهُ .

ثُمَّ قَالَ بَحِيرَى لِأَبِى طَالِبٍ : مَا صِلَةُ هٰذَا الْغُلَامِ بِكَ ؟ قَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنَّهُ ابْنِى .

قَالَ بَحِيرَى : لَيسَ هُوَ ابْنَكَ . وَمَا يَنبَغِى لِهٰذَا الْغُلَامِ أَن يَكونَ أَبُوهُ حَيًّا . فَعَجِبَ أَبُو طَالِبٍ ؛ وَقَالَ : إِنَّهُ ابنُ أَخِى .

قَالَ بَحِيرَى : مَاذَا فَعَلَ أَبُوهُ ؟

قَالَ أَبُو طَالِبٍ : إِنَّ أَبَاهُ قَد مَاتَ وَأُمَّهُ حُبْلَى . وَإِنَّ أُمَّهُ قَد مَاتَت وَعُمرُهُ سِتُّ

سَنَوَاتٍ . قَالَ بَحِيرَى : صَدَقتَ ، ثُمَّ رَفَعَ قَمِيصَ مُحَمَّدٍ مِن فوقِ ظَهرِهِ ، فَرَأَى بَينَ كَتِفَيْهِ عَلامَةً أَو خَاتَمًا .

فَقَالَ : إِنِّى مُتَأَكِّدٌ تَمامًا أَنَّ هٰذَا الغُلامَ سَيَكُونُ خَاتَمَ الرُّسُلِ ، الَّذِى يَنتَظِرُهُ اليَهُودُ وَالْمَسِيحِيُّونَ ، وَقَد تَنَبَّأَتِ الكُتُبُ المُقَدَّسَةُ ــ الَّتِى جَاءَتْ مِن عِندِ اللهِ ــ بِقُرْبِ مَجِيئِهِ .

ثُمَّ نَصَحَ لِأَبِى طَالِبٍ أَن يُعْنَى بِمُحَمدٍ عِنَايَةً خَاصَّةً ، وَقَالَ لَهُ : اِرْجِعْ بِابْنِ أَخِيكَ

إِلَى بَلَدِه ، وَاحذَرْ عَلَيهِ مِنَ اليَهُـودِ ، وَاحتَرِسْ مِنهُم . فَوَاللهِ لَئِنْ رَأَوْهُ وَعَرَفُوا مِنهُ مَاعَرَفتُ لَيُؤْذُونَهُ بِـأَىِّ نَـوعٍ مِـنَ الإِيذَاءِ ؛ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لِابنِ أَخِيكَ هٰذَا شَأْنٌ عَظِيمٌ فِى المستَقبَلِ . فَأَسرِعْ بِهِ .

جَاءَت هٰذِهِ القِصَّةُ عَرَضًا ، فَازدَادَت عِنَايَةُ أَبِى طَالِبٍ بِمُحَمدٍ العَظِيمِ . وَلَم يَبْقَ فِى الشَّامِ مُدَّةً طَوِيلَةً . وَأَسرَعَ فِى بَيعِ مَا كَانَ مَعَهُ ، وَاشتَرَى مَـا أَرادَ شِرَاءَهُ . وَرَجَعَ بِهِ سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ . وَلَم

يَخرُجْ بِهِ فِي سَفَرٍ بَعدَ ذٰلِكَ ؛ خَوْفًا عَلَيهِ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى يَقُولُونَ ذٰلِكَ قَبلَ أَن يُرسَلَ الرَّسُولُ . فَلَمَّا أَرسَلَهُ اللّٰهُ لِهِدَايَةِ الْعَالَمِ وَإِصلاَحِهِ أنكَرُوا رِسَالَتَهُ : قَالَ اللّٰهُ تَعَالَى : « فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » .

وَقَد حَفِظَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الْمُختَارَ فِي حَيَاتِهِ الأُولَى قَبلَ الرِّسَالَةِ . وَكَانَ يَأكُلُ مِمَّا يَأكُلُهُ قَومُهُ ، وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ

كَمَا يَـمْشُونَ ؛ كَـى يَعـرِفَ أَخـلاَقَ النَّاسِ ، وَمُيُولَهُم وَعَادَاتِهِم .

وَقَد عَمِلَ مُحَمَّدٌ طُولَ حَيَاتِهِ عَلَـى نَشرِ الْمَبَادِئِ الإِنسَانِيَّـةِ فِـى الْقُلُـوبِ ، كَمَحَبَّةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَمُسَاعَدَةِ اليَتَامَى وَالْمُحتَاجِينَ ، وَحِمَايَةِ الضُّعَفَاءِ مِن ظُلْمِ الطُّغَاةِ وَالظَّالِمِينَ .

وَهٰـذِهِ كُلُّهَـا مِـنَ الأَخـلاَقِ الإِسلاَمِيَّةِ ، وَقَد أُرسِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِيُخرِجَ النَّاسَ مِنَ الضَّلاَلَةِ إِلَى الهُدَى ، وَلِيُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخلاَقِ .